مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (17) العدد (8) 1995
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research – Arts and Humanities Series Vol. (17) No (8) 1995

المدرسة في العصر المملوكي
(وبعض المهن التي ازدهرت من حولها)

الدكتور علي حيدر*

❐ ملخص ❐

خلقت المدرسة سلسلة من التحولات التي بدلت الوجه الاجتماعي والثقافي للدولة المملوكية. لذلك يعرض هذا البحث لطريقة إنشاء المدارس، ودور المنشئ في تحديد طريقة عمل مدرسته وأهدافها. ثم يتطرق للمواد التي كانت تُدرَّس، مع محاولة فهم أسباب الجمود الفكري والثقافي، على الرغم من الانتشار الواسع للمدارس في هذا العصر. ثم يتناول أسلوب التعليم، وكفاءة المدرسين. كما يلقي بعض الضوء على مراحل الدراسة فيها، وعلى الجو العام الذي كان يخيم عليها، وعلى العاملين فيها من الإداريين وغيرهم.

يتناول هذا البحث أيضا بعض الأعمال التي كان يقوم بها بعض خريجي هذه المدارس، بعيدا عن العمل في القضاء، أو في أحد دواوين الدولة، فيذكر مرتل القرآن، وقارئ الكرسي، والقاص، والواعظ، كما يشير إلى بعض المهن التي ازدهرت حول المدرسة، كمهنة الناسخ، والوراق، والمُجلِّد، والمُذهِّب، والدلال.

وقد استمد هذا البحث موضوعه - بالدرجة الأولى - من كتاب (معيد النعم، ومبيد النقم) لتاج الدين السبكي.

لذلك عرض - أيضا - لرأي الفقه في كثير من القضايا التي نشأت عن المدرسة، أو عن غيرها من المهن.

*أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة تشرين - اللاذقية - سورية.

مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (17) العدد (8) 1995
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research – Arts and Humanities Series Vol. (17) No (8) 1995

Almadrasa à l'époque des Mamlouks (activités sociales et culturelles autour d'elle)

Dr. Ali HAYDAR*

❒ RÉSUMÉ ❒

Dans cet exposé on trouve que la madrasa crée une série de processus qui transforme le paysage social de l'état mamlouk et, que par son acte du waqf, le fondateur détermine son fonctionnement.

En examinant les matières enseignées à cette époque, on essaye de comprendre les raisons de l'ankylose de la culture malgré la construction massive des madrasas.

On aborde, esuite, la méthode pédagogique suivie, la capacité des enseignants, les étapes que les étudiants doivent suivre, le climat qui régne dans la madrasa et, le cadre administratif de cet établissement.

On cite, aussi, quelques métiers et activités sociales et culturelles crées autour de la madrasa, les récitants du coran en chantant, Qari al-Kursi, Al-Qass, al-Warraq, al-Mudahhib, et al-Dallal.

Ce travail s' inspire, essentiellement, du Kitab (mucid al-niamwa-mubid al-niqam, de Tag al- Din al- Subki, c'est la raison pour laquelle on cite le point de vue de l'auteur dans les problèmes qui s' imposent .

* Maître de conférences au Departement d'Arabe, Faculté des Lettres et Sciences Humaines, Université de Tichrine, Lattaquié, Syrie.

تمهيد:

لعل انتشار المدارس وازدهارها كان من أهم السمات التي اتسمت بها الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في العصر المملوكي[1]. فوجود المدارس خلق سلسلة من التحولات في الوجه الاجتماعي والثقافي للدولة المملوكية، لأن المدرسة فتحت أمام سكان الأرياف طريق التحضر، ودفعتهم إلى المدن، وسمحت لهم بالتخلص من ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية، عن طريق النزوح إلى المراكز البشرية، ليشاركوا سكانها طريقة حياتهم، ووظائفهم الحكومية والدينية وأعمالهم الأخرى.

كما أن موارد أملاك الوقف التي أوقفت على هذه المدارس، دفعت بأبناء الفقراء إلى المجيء إلى المدرسة مفتشين عن العلم، وعن ملجأ ضد العوز والفقر، إذ كان الطالب يتلقى مساعدة مادية تعينه على تحصيل علومه. وهكذا كان أبناء الفقراء وأبناء الطبقة الحاكمة، وأبناء الأغنياء، وأبناء الأرياف يدرسون في قاعة واحدة، مما خلق علاقات اجتماعية لم تكن لتوجد لولا المدرسة.

أضحت المدرسة إذا، مكانا لتلقي العلم، ومؤسسة اجتماعية يمكن أن يفضي المرور بها إلى الثروة أو إلى مكانة اجتماعية أوسياسية بارزة، لأن المتعلمين كانوا يشغلون وظائف هامة في التدريس أو القضاء، أو في أحد دواوين الدولة.

لم يقتصر دور المدرسة على ذلك، بل كانت مؤسسة تعمل على نشر الأفكار السياسية والدينية، لذلك ارتبطت معظم المدارس في هذا العصر بمذهب أو أكثر من المذاهب الفقهية الأربعة. فكان هناك مدارس للمذهب الحنفي، وأخرى للشافعي وغيرها للمذهب المالكي أو الحنبلي. أما المدارس التي كانت تدرس فقه مذهبين معا أو أكثر فكانت قليلة، وهي غالبا ما كانت تدرس الفقه الحنفي والشافعي، أو المالكي والحنبلي[2].

إنشاء المدارس* :

ربما لم يتوقع مؤسسو هذه المدارس مثل هذه النتائج، ولا مثل هذه التحولات التي تركتها المدرسة في المجتمع، مع أنهم كانوا يؤثرون تأثيرا بالغا على عملها. فعندما كان أحدهم يقرر إنشاء مدرسة، كان ينفق على بنائها، وعندما يتم ذلك كان يوقف عليها الأوقاف التي تدر دخلا ماليا يسد حاجات هذه المدرسة، حتى تكون مؤسسة مستقلة. ثم يعمد هذا المؤسس، غالبا، إلى ترك وصية يحدد فيها طريقة سير هذه المدرسة. يذكر في وصيته عدد الطلاب الذين يجب أن يتعلموا فيها، وعدد المدرسين القائمين على التعليم فيها، وله أيضا أن يحدد مايجب أن يتمتع به هؤلاء المدرسون من قدرات

---

*يستمد هذا البحث موضوعاته من كتاب (معيد النعم ومبيد النقم) لتاج الدين السبكي.

علمية وفكرية[3]. وقد يحدد أيضا ساعات فتح الباب الخارجي للمدرسة وإغلاقه[4]. وله أيضا أن يقرر المواد العلمية التي تدرسها المدرسة ولاسيما نوع الفقه الذي يجب تدريسه في مدرسته. لكن وصية مؤسس المدرسة لم تكن تحترم بدقة، إذ يذكر السبكي أن القائمين على المدرسة كانوا يتجاهلون في بعض الأحيان، هذه الوصية ويُدرسون فيها غير ما أوصى به الواقف. ويبدو أن هذا التجاوز كان يتم في موضوع الفقه خاصة، لأن المدرسين يعجزون عن تدريسه بسبب تعقيده، فيدرسون بدلا عنه التفسير أو الحديث أو النحو. ويؤكد السبكي أن ذا العمل يخالف الشريعة، إذ لايحق لأحد تغيير وصية الواقف، ولايجوز تدريس إلا مانص عليه الواقف في وصيته. كما أن القائمين على المدارس كانوا يقبلون في مدارسهم عددا من الطلاب يتجاوز أحيانا ماحدده الواقف، وهذا أيضا ينافي الشرع، لأن الوصية يجب أن تحترم بدقة[5].

ما يتلقاه الطلاب في المدرسة:

في المدرسة كان الطلاب يتلقون مختلف العلوم النقلية بصورة خاصة، إذ يتم تدريس القرآن والحديث والتفسير، واللغة العربية وفروعها، وبعض العلوم النقلية الأخرى.

أما الفقه فكان يتنوع من مدرسة إلى أخرى، تبعا لوصية الواقف. يبدو، إذا، أن العلوم النقلية هي التي كانت سائدة في هذا العصر، وهي تتطلب جهودا مضنية يبذلها الطالب لحفظ هذه المواد. ومنذ البداية، كانت العقبات والصعوبات تواجه التلاميذ في الكُتّاب[6]. فكانوا ينكبون على حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، قبل أن يكونوا قد تلقوا ما يعينهم على ذلك من علوم أولية، لأن القرآن كما نعلم، يمثل قمة البلاغة العربية وذروة فصاحتها. كان الأطفال يتعلمون أيضاً شيئاً من الحديث الشريف، ومبادئ الكتابة والخط، مع شيء من النحو والشعر. هذا مايتلقاه التلاميذ في الكتاب بصورة عامة، وقد يضاف إلى ذلك تعليم مبادئ الحساب، وقد يتلقى التلاميذ شيئا من عقيدة أهل السنة والجماعة، هذا مايفهم من نصيحة السبكي لمعلمي عصره، إذ ينصحهم بتجنب تعليم العقائد، وتأخير ذلك إلى مرحلة لاحقة، أي بعد أن يبلغ التلاميذ مستوى علمي أعلى[7].

ويبدو أن السبكي يفضل تأجيل تعليم العقائد إلى مرحلة دراسية يتمكن فيها التلاميذ من استيعاب هذا الأمر. بالمقابل يهتم أيضا السبكي بعقيدة المعلم وفكره، وهو يؤكد أن المعلم يؤثر تأثير بالغا في الأطفال، لذلك ينصح الآباء بالتأكد من سلامة عقيدة معلم أولادهم، فلا يختاروا إلا من توافق عقيدته عقيدة أهل السنة والجماعة، بعد ذلك يمكن للآباء أن يهتموا بقضية المذهب الفقهي لمعلم أبنائهم[8].

هكذا كان الطلاب، منذ نعومة أظفارهم، يخضعون لظروف فكرية تحدد اتجاه

تفكيرهم في المستقبل، ولاسيما في ميدان الفقه، لأن المدرسة تحرص على وضعهم في وسط تقليدي، لايسمح إلا بالحصول على ثقافة تتسم بالتكرار والجمود، مما يعيق ظهور الروح الإبداعية عند هؤلاء الطلاب. فالطالب لايملك حرية اختيار ثقافته وتعليمه. فهو يدخل إلى المدرسة ليس لإيمانه بالمذهب الذي تقوم بتدريسه، ولكنه يدخل مدفوعا، في أغلب الأحيان، بضغط من أسرته التي تريد التخفيف من أعبائها المادية. وعندما يُنهي هذا الطالب دراسته يكون قد أعد فكريا بالطريقة التي أرادتها له مدرسته، وأصبح نسخة أخرى لأستاذه أو شيخه، إلا في حالات نادرة يتمكن فيها الطالب من إبراز مايملك من روح الخلق والإبداع.

من هذا المنطلق يبدو دور المدرسة سلبيا في هذا العصر، وعلى الرغم من انتشار المدارس انتشارا واسعا، وعلى الرغم من سهولة تلقي العلم، ومن التشجيع عليه، كانت الثقافة العربية والإسلامية تميل نحو الجمود، وتتقوقع على ذاتها، وتكرر نفسها وهي ذاهبة بخطوات واسعة نحو الانكماش التام.

لفهم هذه الحقيقة تكفي الإشارة إلى ما ذكره ابن خلدون في موضوع العلوم في عصره، فهو يذكر أن العلوم نوعان: الأول يتألف من العلوم الطبيعية التي يعرفها الإنسان بغريزته وبعقله وبتجربته، وهي علوم الفلسفة، والحكمة، والطبيعيات. أما النوع الثاني فهو العلوم النقلية التي يتناقلها الناس جيلا بعد جيل دون أن يكون للعقل دور هام فيها، باستثناء دوره في فروع الفقه، وهذه العلوم هي العلوم الدينية والأدبية(9).

إذا أخذنا بقول ابن خلدون، فإن النوع الأول كان مستبعدا من المدرسة بصورة خاصة ومن الوسط الثقافي بصورة عامة، بينما كان النوع الثاني الذي لايحتاج إلى إعمال العقل، محط اهتمام القائمين على المدارس خاصة، وعلى دور العلم والثقافة عامة.

ربما يفسر هذا غزارة التأليف في هذا العصر، فالمؤلفات التي كتبت في فرع واحد من فروع المعرفة، وحول موضوع واحد كانت كثيرة، حتى إنه كان من الصعب الإحاطة بها، لما فيها من شروح وحواش كانت تضع طالب العلم في دوامة قد لايخرج منها، كان ابن خلدون مفكرا سبق عصره، لذلك يهاجم ماتسم به الإنتاج الثقافي في عصره من جمود وتكرار واعتبر ذلك ظاهرة مرضية. إنه يرفض خاصة هذه المؤلفات الغثة التي تدرس في المدارس، وتضيع وقت الطلاب والمدرسين معا، يذكر بن خلدون مثالا على ذلك ماكتب من مؤلفات في الفقه المالكي، وهي لاتعد ولاتحصى، وهو يقترح أن يقوم الأستاذ بتعليم طلابه ماهو جوهري في المذهب، لأن تدريس كل ماكتب في هذا الموضوع ضرب من العبث وقد لاتكفي حياة الطالب كلها للإلمام بما كتب حول فرع واحد من فروع المعرفة، فكيف

للطالب أن يحيط بما ألف في الفروع الأخرى. كما يذكر ابن خلدون مثال النحو العربي، وما كتب من مؤلفات في هذا الميدان. وهو يرى أنه من الصعب أن نطالب الطالب بدراسة الخلافات بين مدارس النحو العربية، لأن هذا يثقل كاهلهم ويجعل مهمتهم مستحيلة[10].

كثرة الشروح ولدت حركة معاكسة، فالمُدرِّس الذي يشرح كتابا ويمليه على طلابه يجد، هو أوغيره، بعد فترة أن هذه الشروح تحتاج إلى اختصار، فيعمد إلى اختصارها، ثم يأتي آخر ويرى أن الاختصار يحتاج إلى شرح فيفعل ذلك، وهكذا دواليك، حتى دخل الإنتاج الثقافي في هذه الدوامة التي لم يخرج منها لعدة قرون متتالية.

وصل الاختصار إلى ذروته عندما قام بعض الفقهاء والأدباء بنظم بعض الكتب شعرا، أو بنظم مبادئ العلوم في قصيدة أو أرجوزة بقصد تسهيل حفظها، لكن هذه الخطوات أدت إلى نتيجة معاكسة لما قصد هؤلاء الأدباء، إذ زادت هذه المنظومات أساليب التعليم تعقيدا وعقما، لأن الطالب كان يقضي وقته في حل رموزها، وعندما كان يصل إلى ذلك كان يدرك تفاهة ماتقدمه هذه القصائد من فائدة. لقد هاجم ابن خلدون عمل هؤلاء الأدباء والفقهاء، وخص بالذكر منهم ابن الحاجب الذي ألف مختصرا في أصول الفقه عرف بمختصر ابن الحاجب، وابن مالك الذي اختصر في ألفيته قواعد النحو العربي، وقد حمل هذا العمل اسمه أيضا[11].

أسلوب التعليم والمدرسون:

أما أسلوب التدريس فلا يختلف كثيرا عما نعرفه في عصرنا، فهو يعتمد على تكرار المادة العلمية حسب مستويات الطلاب واستعدادهم الفكري، وحسب المراحل الدراسية التي يمر فيها الطالب.

يرى ابن خلدون أن الأسلوب المثالي في التدريس هو أن يبدأ الأستاذ بتعليم طلابه مبادئ بسيطة في كل مادة بشكل تدريجي، يرافقها شروح عامة تناسب المستوى الفكري للطلاب. هذه المرحلة تهدف إلى إدخال الطلاب إلى لب المادة، ثم على المدرس أن يستمر في الأسلوب نفسه حتى نهاية المادة المقررة، يبدأ المدرس بعد ذلك بالتوسع في المادة، وفي نهاية المرحلة الثالثة يكون الطلاب قد تمثلوا هذه المادة بشكل جيد[12].

وقد سبق السبكي ابنَ خلدون في ذلك، عندما يعرض لنا خلاصة تجربته في ميدان التدريس. إنه ينصح زملاءه بأن يعتمدوا أسلوبا يراعي مستوى الطلاب. وهو يرى أن على المدرس البدء بتعليم طلابه المادة المقررة في أبسط صورها. ثم يعمد بعد ذلك إلى تلقينهم مسائل أكثر تعقيدا، ويكرر ذلك حتى يتمثل الطلاب المادة. إن السبكي يؤكد وجوب مراعاة مستوى الطلاب باستمرار، فلايلق المدرس على طلابه

موضوعات دون مستواهم الفكري، أو أعلى من قدراتهم العقلية، ويؤكد على احترام ذلك في موضوع الفقه خاصة[13].
لكن ذلك كله يتوقف على نجاح المدرس في عمله، وهو أمر يبدو أنه لم يتوافر في كثير ممن امتهنوا التعليم في العصر المملوكي، هذا مايقوله السبكي عندما يعتبر أن معظم القائمين على التعليم في عصره لم يكونوا أهلا لعملهم، فهم لايقومون بواجباتهم كما تقتضيه الشريعة، ويتهربون من إلقاء الدروس، وهم يحفظون عن ظهر قلب بعض المسائل في المواد التي يدرسونها ثم يرددونها على طلابهم، دون أن يحاولوا تطوير أساليبهم أو تعميق معارفهم. هذه الجماعة من المدرسين شجعت بعملها هذا أرذال الناس على امتهان التدريس مما أدى إلى تدهور التعليم. ويرى السبكي أن المدرس الكفء هو الذي يتمتع بثقافة متينة، وقدرات كبيرة تمكنه من مواجهة جميع القضايا والمسائل التي تعرض له أثناء إلقاء الدرس[14].

مراحل الدراسة والجو العام في المدرسة:

في المدرسة كان هناك ثلاث مراحل يمر فيها الطالب، أولها مرحلة المبتدئين وهي تضم عادة أغلب طلاب المدرسة[15]. والمرحلة الثانية مرحلة مُنتهى الفقهاء، كما يسميها السبكي، وفيها يشارك الطلاب في الحوار والمناقشة أثناء الدروس مما يساعدهم على فهم مايلقى عليهم من دروس. أما المرحلة الثالثة فيسميها السبكي مرحلة المفيد، وفيها يتعمق الطلاب في أبحاثهم، ويطيلون المناقشة مع أستاذهم حتى يُحصّلوا أكبر قدر من الفائدة[16]، هذا ولايحدد السبكي كيفية توزع الطلاب في هذه المراحل، ولايحدد لنا إن كان طلاب هذه المراحل يتواجدون في قاعة واحدة، أم في قاعات مستقلة، لكن يفهم مما يذكره أنه كان هناك قاعات تضم مستويات مختلفة من الطلاب، وأخرى لا تضم إلا طلابا من مرحلة واحدة، ويبدو أن هذا الأمر كان يعتمد على أهمية المدرسة، وعلى حجم وارداتها من الوقف، وعلى رغبة منشئ المدرسة الذي كان يستطيع أن يحدد في وصيته عدد الطلاب في مدرسته.
في نهاية المرحلة الثالثة يستطيع الطالب أن يتخصص في فرع من العلوم ينال في النهاية إجازة تسمح له بممارسة التدريس، تدريس كتاب معين، أو أو تعطيه حق الفتوى[17]. وفي هذه الإجازة يُذكر اسم الطالب المجاز، واسم شيخه، ومذهبه الفقهي، وتاريخها، وهي تحمل توقيع الأستاذ.[18].

في المدرسة يلقى الطلاب عناية تامة، فهم يتلقون راتبا يحدده واقف المدرسة، ويتوقف مقداره على أهمية المدرسة، وعلى وارداتها من أموال الوقف. أما الجو العام في المدرسة فلا يتختلف كثيرا عما نعرفه في أيامنا هذه، فالطلاب يحاولون الهروب من الدرس، ويتبادلون الحديث أثناء إلقاء

الأستاذ لدرسه، وقد لايستمع بعضهم بانتباه إلى ذلك، بل يتشاغلون بفتح كتب لاعلاقة لها بالموضوع. وقد تشرد عقولهم بعيدا عن قاعات الدرس. وعما يلقى فيها[19]، وهذه أمور يعرفها جيدا كل من يمارس التدريس في أيامنا. لكن مناخ المدرسة في العصر المملوكي يتميز عما نعرفه اليوم بسيطرة تامة للاتجاه الديني، فتعليم القرآن الكريم والحديث الشريف كان له الصدارة في جميع مدارس العصر. وخلال أوقات الراحة أو الفراغ كان أحد الطلاب يتلو بعض الآيات الكريمة. إضافة إلى ذلك كان هناك من يسمى (المادح) الذي يقرأ على الطلاب بعض المدائح النبوية. وينصح السبكي طلاب عصره بالإنصات التام لهذين الطالبين، وهو يذكر أيضا أن (قارئ العشر) يتولى قراءة بعض الآيات القرآنية قبل الدرس، وأثناء الاستراحة، كما يذكر (المنشد) الذي يتولى قراءة القصائد الشعرية في الأوقات نفسها، وهو ينصحه بان يقتصر إنشاده على المدائح النبوية، والقصائد التي تشيد بعظمة الخالق، وتذكّر بأمور الموت والحياة والآخرة.

وهكذا يبدو أن المنشد والمادح شخص واحد[20].

الجهاز الإداري:

كان عدد أفراد الجهاز الإداري للمدرسة يتزايد باطراد مع أهمية المدرسة، فمع الشيوخ والمدرسين، كان هناك ناظر للمدرسة يشرف على إدارتها، يعاونه من يسميه السبكي((كاتب الغيبة)) الذي يتولى الإشراف على الطلاب، وتسجيل أسماء الغائبين منهم، ليتم اقتطاع رواتبهم عن أيام غيابهم. لذلك ينصحه السبكي بالاستفسار عن أسباب غياب الطالب قبل أن يدون اسمه بين الغائبين لأنه إذا كان هناك أسباب موجبة لغيابه، فعليه ألا يفعل ذلك. ويبدو أن كاتب الغيب لم يكن، أحيانا مستقيما في عمله، إذ كان يقبل الرشوة ويهمل واجبه، لذلك يطلب السبكي منه الكف عن ذلك[21].

كذلك كانت معظم المدارس تمتلك مكتبات خاصة بها، يشرف عليها خازن الكتب الذي يتولى العناية بالكتب، وترميم مايتلف منها، وإعارتها لمن يطلبها من الطلاب. ويرى السبكي أن للفقراء أفضلية في استعارة الكتب، لأن الطلاب الأغنياء قادرون على شراء نسخ منها، يضيف السبكي أيضا أن على الخازن ألا يعير الكتب إلا بضمان يعادل قيمتها على الأقل، وهذا رأي معظم الفقهاء الذين يحرصون على حفظ التراث[22]. ويذكر السبكي أيضا من يسميه شيخ الرواية[23] ويحدد مهمته بالإشراف على ضبط رواية الحديث الشريف، وتصحيح أخطاء من يقوم بالرواية، وربما كان شيخ الرواية ومدرس الحديث شخصا واحدا. على كل حال، ربما كان هذا الشيخ يعمل خاصة في المدارس المخصصة للحديث.

وفي هذا العصر، كان لكل مدرسة بواب يراقب بابها الخارجي ليل نهار، وهو يسكن

إما داخل المدرسة وإما بجانبها. لذلك ينصحه السبكي باحترام وصية الواقف، إن كان حدد فيها أوقاتاً لفتح الباب أو إغلاقه[24].

كما كان يوجد في كل مدرسة مسجد صغير يؤدي فيه الطلاب وأساتذتهم فريضة الصلاة، وكما هي الحال في المساجد الكبيرة، يُعين في مسجد المدرسة خطيب وإمام وحتى واعظ، وهم يتقاضون أجورهم من موارد الوقف العائدة إلى المدرسة على الأرجح.

مهن ازدهرت مع انتشار المدارس:

لم يقتصر تأثير المدرسة على الطلاب والمدرسين فحسب، بل وجدت عدة مهن كانت تعتمد على المدرسة بدرجات متفاوتة، وهي مهن تتعلق بالنشاطات الثقافية والاجتماعية لأن الأشخاص الذين ينهون الدراسة في المدرسة، أو يتركونها قبل ذلك قد لايجدون عملا في التعليم أو في وظائف الدولة الأخرى، لذلك يعمل بعضهم في مهن أقل أهمية من ذلك، ولاعلاقة لها بالتعليم أو الإدارة. من هؤلاء مرتلو القرآن (غناءً) الذين كانوا يشكلون فرقا تقيم الحفلات والسهرات، يرتل أفرادها شيئا من القرآن الكريم، ويسبحون الله، ويمدحون نبيه(ص).

شكلت هذه السهرات جزءا هاما من الوجه الديني للعصر المملوكي، وكانت تتم، غالبا، بعد صلاة العصر في المساجد أو في إحدى المدارس، في جميع أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة. كان المرتلون وكذلك الحاضرون يتلقون أجرا على عملهم من أموال الوقف. وكان هناك موظف يدعى (كاتب غيبة السامعين) يراقب هذه الجلسات[25]، ويدون أسماء الغائبين، وأسماء الذين لايؤدون واجبهم في التلاوة، أو في السماع، ليصار إلى حسم أجورهم اليومية.

وقد أثرت هذه الحفلات في نفس ابن بطوطة عند زيارته إلى دمشق، فذكر أنه حضر فيها حفل قراءة القرآن، تدعى الكوثرية، في المسجد الأموي بعد صلاة العصر، وفيها قرئ من سورة الكوثر حتى ختام القرآن. وذكر أن ستمئة شخص حضروا ذلك، جميعهم كانوا يتلقون أجرا على حضورهم. وكان هناك موظفٌ يدعى كاتب الغيبة يراقبهم ويحسم أجر الغائبين بما يتناسب مع مدة غيابهم[26]. كان هؤلاء المنشدون يتجولون أيضا في المدينة يبحثون عن بيوت الأمراء والأغنياء خاصة، ليرتلوا القرآن على أبوابهم بغية الحصول على شيء من المال، وهذا، كما يبدو، شكل من أشكال التسول، لذلك ينصحهم السبكي بالكف عن ذلك، احتراما للقرآن الكريم، وحفظا لماء وجوههم.

ويبدو أن هؤلاء المنشدين كانوا يستغلون مواهبهم في غير تلاوة القرآن، إذ كانوا يشاركون في سهرات خاصة يغنون فيها من أجل كسب عيشهم، لذلك يطالبهم

السبكي بالامتناع عن ذلك، وبقصر عملهم على ترتيل القرآن وفق القواعد المذكورة في كتب القراءات القرآنية[27].

هناك رجال آخرون قادمون من المدرسة، وهم الذين يحثون الناس على فعل الخيرواجتناب الشرور. منهم الواعظ وقارئ الكرسي، كان الواحد منهم يجلس على كرسي في إحدى المدارس، أو في أحد المساجد، أو في خانقا، ثم يقرأ على الناس كتابا من كتب الحديث الشريف، أو التفسير، أو من الكتب التي تناسب مستوى السامعين، ويطلب السبكي من هؤلاء، ولاسيما من قارئ الكرسي، أن يقرأ أحدهم على السامعين كتبا تحض الناس على فعل الخير واجتناب الشر، وتذكّر بالحياة بعد الموت، مثل (إحياء علوم الدين) للغزّالي، وكتابي (حلية الأبرار وشعائر الأخيار) المعروف بـ (أذكار النووي) و (رياض الصالحين) للإمام محي الدين النووي، وكتاب (سلاح المؤمن) لتقي الدين محمد بن علي المصري الشافعي (ت 745هـ) [28].

أما القاص فيبدو أنه كان يقيم ندواته في الشوارع والأزقة، وكان يتلو على الناس بعضا من الذكر الحكيم عن ظهر قلب، أو بعضا من الأحاديث الشريفة، أو شيئا من سيرة السلف. وينصح السبكي القاص أن يعتمد أسلوبا سهلا يفهمه جميع المستمعين، وكان قد فعل الشيء نفسه مع الخطيب والواعظ، كما يطلب منه أيضاً أن يحث الناس على القيام بواجباتهم الدينية، وأن يتجنب الخوض في مسائل العقيدة، والصفات الإلهية ومسائل ماوراء الطبيعة[29].

وليس واضحا إن كان الواعظ وقارئ الكرسي والقاص يتقاضون أجرا من موارد الوقف، أو من أي مصدر آخر مقابل مايقومون به من عمل، أم إن كانوا يفعلون ذلك بدافع ذاتي محض، لكن يبدو أن ماكانوا يُلقونه في مجالسهم كان مستمدا في أغلبه من السيرة النبوية التي كانت تشكل جزءا هاماً من الأدب الديني، ولم يعتمد هؤلاء على سيرة ابن هشام فحسب، بل كانوا يلقون في بعض الأحيان، كتب سيرة ألفت في عصور مختلفة، كما فعل القاضي فتح الدين بن الشهيد (ت 793هـ) الذي نظم سيرة النبي (ص) في كتاب بعنوان (الفتح القريب في سيرة الحبيب) وراح يلقيها في أكبر مساجد دمشق والقاهرة[30].

كانت المدرسة مؤسسة تقف وراء ازدهار عدد من المهن التي تتعلق بالحياة الفكحرية للعصر المملوكي. فمن المدرسة جاء الناسخ الذي كان يتمتع بموهبة الخط الجميل، ويبدو أن عمل الناسخ كان مزدهرا بسبب غزارة الإنتاج الثقافي في هذا العصر، ولأن الطلاب كانوا في حاجة مستمرة ومتزايدة لشراء الكتب واقتنائها. لهذا كان الناسخ يتلقى أجرا مرتفعا نسبياً، إلا أن هذا الأجر كان يتنوع حسب حجم الكتاب المنسوخ، وحسب المادة التي يتضمنها هذا الكتاب، لذلك كان نسخ كتاب

في الحديث الشريف أقل أجرا من نسخ كتاب تحظره الشريعة، وتمنع تداوله ككتب الخلاعة. ولم يكن النساخ أحراراً في عملهم، لأن الزبون كان له الحق في أن يفرض على الناسخ عدد الصفحات في الكتاب، وعدد السطور في الصفحة الواحدة، ونوع الحبر الذي يستخدمه الناسخ. وكان بعض النساخ يخونون مهنتهم، عندما كانوا يحذفون بعض الصفحات وحتى بعض الفصول من الكتاب الذي ينسخونه، كسبا للوقت وتوفيرا للورق والحبر. لذلك يقول السبكي: إن هؤلاء النساخ يخونون الله بتضييعهم للعلم، لأن عملهم هذا يؤثر على المعنى العام للكتاب، وهم يخونون المؤلف بحذفهم بعض أجزاء من كتابه، ويخونون الزبون عندما يتقاضون أجرا عن عمل لم يقوموا به[31].

وفي بعض الأحيان كان الحذف يتم بطلب من الزبون نفسه توفيراً لنفقات النسخ. وهذا يفسر لنا مانجده من اختلاف بين نسخ المخطوط الواحد، زيادة أو نقصانا، هذه المهنة النبيلة التي ندين لها بكل كنوز الحضارة العربية والإسلامية التي وصلت إلينا، كان يجب أن تقتصر، حسب رأي السبكي، على نسخ كتب العلوم النقلية التي تفيد الدين، وأن تمتنع عن نسخ الأعمال التي لاتفيد الشريعة. لذلك فهو ينصح الناسخ بأن يرفض نسخ الكتب التي تنشر البدعة، أو الأباطيل، وكتب الخلاعة التي تصف أوضاع العلاقات الجنسية، وكتب الخمرة والموضوعات التي تحض على الفجور، والكتب التي جعلها الله بلافائدة كسيرة عنترة وغيرها من الكتب التي تضيع وقت القراء، ولاتفيد الدين[32].

كانت مهنة الوراقة تمثل في رأي السبكي، مهنة من أفضل المهن، لأنها تساعد على نسخ القرآن، وكتب العلوم النقلية، والوثائق الشخصية والعامة بتوفيرها للورق اللازم لذلك. وذكر السبكي بعضا من الواجبات التي يجب على الورّاق الالتزام بها، منها أن يرأف برجال العلم وبالآخرين، فلا يرفع أسعار الورق، وأن لايبيع الورق إلا من أجل نسخ الكتب التي تفيد الدين والمجتمع، وأن يرفض بيع الورق لمن يستخدمه في كتابة البدع أو في شهادات الزور، أو في أمور أخرى تحرمها الشريعة[33] أما مهنة المُذهّب[34] فكانت تقتصر على طلاء الكتب بماء الذهب، وهي تدل على ترف واضح كان يعيشه بعض أفراد المجتمع. ومن الغريب أن السبكي كان قد هاجم عادة طلاء البيوت بماء الذهب، واقتناء الأشياء الثمينة، لكنه لايعترض على هذه المهنة. إنه ينصح المُذهّب بأن يقصر عمله على طلاء نسخ القرآن بماء الذهب، لأن طلاء كتب غير القرآن، بماء الذهب، يحرمه الفقهاء بالإجماع. ويشير أيضا إلى أن الفقهاء يرون الامتناع عن تذهيب نسخ القرآن التي تستخدمها النساء، إلا أنه يرى، من جانبه، أن نسخ القرآن بماء الذهب مباح دون النظر إلى من سيستخدمها[35]. وربما كان

رأيه هذا ناجما عن اعتقاده بأن هذا العمل نوع من التبجيل والاحترام للكتاب الكريم، لذلك أيد ذلك دون أن يعترض عليه كما في فعل مواقف أخرى.

أخيرا، يذكر السبكي المنادي (الدلال) الذي كان يتولى بيع الكتب في الساحات العامة والأسواق، وقد طالبه السبكي أن يمتنع عن بيع الكتب الدينية لمن لايعرف قيمتها، ولايحترمها، وأن يرفض بيع نسخ القرآن الكريم، أو الحديث الشريف للكفار والمشركين، كذلك حذره من بيع كتب البدع، وكتب التنجيم، والكتب الخيالية كسيرة عنترة وغيرها(36).

الخاتمة:

هكذا يُظهر كتابُ السبكي (معيد النعم) أن المدرسة، في هذا العصر، كانت مؤسسة مستقلة، تعمد مواردها المالية على أملاك الوقف التي يوقفها عليها منشئ المدرسة. كذلك كانت مستقلة على الصعيد الإداري، وعلى الصعيد التعليمي، لأن كل مدرسة كانت تزود طلابها بمعلومات تتفق مع الغاية من إنشائها، لكن جميع المدارس كانت تلتزم بمبادئ التيار التقليدي المحافظ.

لقد أعطى السبكي صورة واضحة عن طريقة عمل المدرسة في عصره، عن مستويات الطلاب، والمدرسين، وعن الجو الذي كان يخيم على المدرسة، وهو جو اتسم بصورة عامة: بمحافظة شديدة، يسيطر عليه تعليم ديني تقليدي، ويخضع فيه التلاميذ إلى نظام دقيق يتسم بالصرامة والتزمت أحياناً. لذلك لا عجب أن تحولت المدرسة إلى مؤسسة لخدمة المحافظين، وإلى أداة استخدمها هؤلاء أحيانا لقمع الأفكار الجديدة التي كانوا يعتبرونها نوعا من البدع والهرطقة، ربما كان هذا سببا حد من قدرة المدرسة على الإسهام في تطور الثقافة واالعلوم، وجعلها في بعض الأحيان، عاملا دفع الفكر ومعه الثقافة، في طريق التحجر والجمود.

مع هذا كله، يبدو أن المدرسة قد حولت الوجه الاجتماعي في السلطنة المملوكية، فظهر حولها عدد من الأنشطة الثقافية والاجتماعية، فكان المنشدون، ومرتلو القرآن، والوعاظ، وقارئو الكرسي، والقصاصون يقومون بمهامهم هادفين إلى ترسيخ الأفكار المحافظة في المجتمع، حيث كان كل شيء يبدو موجهاً في هذا الاتجاه. لكن، وعلى الرغمن الرقابة التي فرضها المحافظون على نشر العلوم العقلية، ولاسيما الفلسفية منها، كان هناك كثيرون ممن اشتغلوا في هذه العلوم، كما أن المهن والأعمال التي ظهرت وازدهرت مع انتشار المدارس لم تكن خاضعة دائما لسيطرة المحافظين. وقد أسهمت هذه المهن، بدرجات متفاوتة، في نشر أفكار لاتتفق مع مايدعو إليه الفقهاء والمحافظون. فبعيداً عن المدرسة والمسجد، كان الناسخ ينسخ كتبا لاتتفق مع ماتنادي به الفئات التقليدية المحافظة، وكتباً فيها مجون

وخلاعـة. وكـان المُجلّد يقـوم بتجـليدها، والـوراق بـبيع ا لأوراق إلى مـن يشـتريها دون أن يسـأل عمـا ستسـتعمل له، والمنادي كان يبيع الكتب دون أن يهتم بما تحويه بين دفـتيها، كـان هؤ لاء يبحـثون عـن الكسـب المـادي، قـبل كـل شيء، وهذا أمر طبيعي، أمـا احترام المبادئ المحافظـة، فكـان يأتي فـي مرحلة لاحقة، وربما لم يكن يخطر لهم على بال.

هكذا يعترف السبكي، بطريقة غير مباشرة، أن سـلطة الفقهـاء، خارجـا عـن المدرسـة والمسجد، كـانت محدودة، لذلك كان الناس يـتداولون كـتب الـبدع، وكـتب الخلاعـة والمجـون، وكتب السيرة الشعبية، مما جعله يؤكـد ضـرورة محاربـة هـذه التصـرفات بجميع الوسائل الممكنة.

مـن الطـبيعي أن يحـرم السـبكي، بوصـفه محافظاً متحمساً، الكتب التي تنشر الأفكار المخالفـة للسـنة. والـتي تنشـر الـبدع، وأن يطـالب بمصـادرة الكتب الـتي تحـض على الخلاعة والفجور، لكن إعلانه الحرب على السير الشعبية لا يمكن فهمه. إنه يضعه في المرتـبة نفسـها الـتي وضـع فيها كتب البدع والفجور، وحرم على الناسخ نسخها، وعلى المجلد تجليدها، وعلـى المنادي بيعها، هذا التصـرف لايمكـن تفسـيره إـلا بتعصـب السـبكي لأفكـاره ومبادئه، وهـذا الـنوع من ا-لأدب كـان يلاقي نجاحا عند مختلف فئات الشـعب، أكـثر ممـا تلاقيـه كـتب الوعـظ والعـلوم الديـنية الأخـرى، ربمـا كـانت المنافسـة بيـن هـذه الكـتب، وكـتب الخيـال الشـعبي قد أقلقت السبكي وجعلته يخشى أن يرى هذا النوع من الأدب يحل محل الأدب الديـني، لأنـه يدغـدغ العواطـف والخيـال، وهـو أمـر لـم يكـن يتمـتع بـه ا-لأدب الديني الذي اتسم بالجد والصرامة...

الحواشي

(1)ظل المسجد وغيره من أماكن العبادة مكانا هاما للتعليم في العصر المملوكي. من أشهر المساجد التي كانت تنشر التعليم المسجد الأموي في دمشق، ومسجد ابن طولون، والجامع الأزهري، والجامع الحاكم في القاهرة - انظر المقريزي ((المواعظ والاعتبار)) 268/2، 275، 278، والسيوطي ((حسن المحاضرة)) 149/2، 153 -154، 154 -155.

(2)ذكر ابن شداد (ت684 هـ) قائمة تتضمن مدارس دمشق وحلب في عصره. ففي دمشق ذكر أربعا وثلاثين مدرسة حنفية، وتسعا وعشرين مدرسة شافعية، وثلاث مدارس مالكية، وثماني مدارس حنبلية، وعدداً من المدارس المخصصة للشافعية والحنفية معا (الأعلاق الخطيرة- قسم الشام- 229-254). كما ذكر في حلب اثنين وعشرين مدرسة حنفية، وإحدى وعشرين للشافعية، ومدرسة واحدة للمالكية للحنبلية معا، وزاوية مالكية، وأخرى حنبلية (الأعلاق الخطيرة- قسم حلب 96-121)، وقد ذكر المقريزي في القاهرة ثلاثا وسبعين مدرسة للشافعية والحنفية والمالكية، وليس فيها مدرسة حنبلية (المواعظ والاعتبار 362/2-403).

(3)معيد النعم 107.

(4)يذكر السبكي أيضا بواب المسجد الذي كان يُكلَّف بفتح أبواب المسجد لمن يأتي للصلاة ليلا. وقد جرت العادة أن يغلق البواب باب المسجد الخارجي بعد صلاة العشاء ولايفتحه إلا في صباح اليوم التالي. معيد النعم 144.

(5)معيد النعم 107.

(6)هذا النوع من المنشآت التعليمية (الكُتّاب) لم يكن يحتاج إلى بناء مستقل، بل كان ملحقا بمسجد أو بمدرسة أو بخانقاه، ويبدو أن أول كُتّاب عرف يرجع إلى عام 595هـ في القدس، حيث كان يتلقى فيه أطفال المسلمين الأيتام القرآن الكريم.

(7)معيد النعم 130.

(8)المصدر السابق 130.

(9)المقدمة 385/2.

(10)المصدر السابق 248/3 - 249.

(11)المصدر السابق 250/3.

(12)المصدر السابق 251/3- 252.

(13)معيد النعم 105.

(14)المصدر السابق 106.

(15)يطلق السبكي على طلاب المدرسة اسم فقهاء المدرسة، وهو لايقصد الفقيه بالمعنى المعروف، لكن هذه التسمية تشير إلى سيطرة العلوم النقلية على المدارس. معيد النعم 109.

(16)معيد النعم 108.

(17)المصدر السابق 108.

(18)المصدر السابق 109.

(19)المصدر السابق 109.

(20)المصدر السابق 109.

(21)المصدر السابق 110.

(22)المصدر السابق 111.

(23)المصدر السابق 111.

(24)المصدر السابق 144.

(25)يطلب منه السبكي ألا يغش في عمله. معيد النعيم 112.

(26)رحلات 1/ 205.

(27)معيد النعيم 110 -111.

(28)المصدر السابق 114.

(29)المصدر السابق 113.

(30)بلغ عدد أبيات هذه السيرة المنظومة خمسين ألف بيت. انظر ابن قاضي شهبة 214 – 215 وشذرات الذهب 329/6.

(31)معيد النعم 131.

(32)المصدر السابق 131.

(33)المصدر السابق 132.

(34)كانت مهنة المُجلِّد رائجة أيضا، وكان يعتني بالكتب ويحميها من التلف، ويوصيه السبكي باحترام أوامر الشريعة، بأن يمتنع عن تجليد الكتب التي تنشر البدع، وتحض على الفجور. معيد النعم 132.

(35)معيد النعم 133.

(36)المصدر السابق 134.

REFERENCES المصادر

(1)ابن بطوطة: رحلات ابن بطوطة.

النص العربي مع ترجمته بالفرنسية في أربعة أجزاء

Collection UNESCO, Paris 1979.

(2)ابن خلدون: المقدمة:

ثلاثة أجزاء- تحقيق كاترمير (Quatremère)

بيروت، بلا تاريخ.

(3)ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة.

في ثلاثة أجزاء:

1-وصف حلب- تحقيق دومنيك سوردل، دمشق 1953.

2-وصف دمشق- تحقيق سامي دهان، دمشق 1956.

3-لبنان والأردن وفلسطين- دمشق 1963.

(4)ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب.

الجزءان الخامس والسادس، بيروت، بلا تاريخ.

(5)ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة .

طبع في المعهد الفرنسي في دمشق، 1977.

(6)السبكي (تاج الدين): مُعيد النِّعم ومبيد النِّقم.

دار الحداثة- بيروت، 1983.

(7)السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.

جزءان. مطبعة الموسوعات، مصر، بلا تاريخ.

(8)المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار

جزءان- مكتبة المثنى، بغداد، بلاتاريخ.